

كآرثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية

بقلم

سماحة الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوى

رابطة العالم الإسلامى

الأمانة العامة - مكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يسر الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، أن تقدم للمسلمين في أنحاء العالم ، نص البحث القيم الذي كتبه سماحة الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ونشره المجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم لندوة العلماء - لكنو - بالهند . بعد أن عملت الرابطة على نشره في صحفها ، وفي غيرها من الصحف الإسلامية ، نظرا لأهميته وقيمته .

والله ولي التوفيق .

ربيع الثاني ١٣٨٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصبح المسلمون في ٢٩ من صفر ١٣٨٧ من الهجرة
(٩ من يونيه ١٩٦٧ م) في كل بقعة من بقاع الارض التي
يسكنونها ، لا يرفعون رؤوسهم حياء ولا يواجهون مواطنيهم
وجيرانهم في الشوارع والطرق ، والمحافل ذلة ومهانة ، قد
خنقتهم العبرات فهم يغالبونها ، فقد جثمت اسرائيل على مراكز
هامة استراتيجية من بلادهم العربية المقدسة ، واستولت على مدن
من أرضهم ، وادهى من كل ذلك وأمر ، ان اليهود قد استولوا
على القبلة الاولى ، وثالث الحرمين الشريفين ، والمسجد
الاقصى المبارك الذي كان منه الاسراء ، وكان ذلك لأول مرة في
ألفى سنة باعتراف ربهم الاكبر ، وكان أول يوم لم يصل فيه
المسلمون الجمعة في المسجد الاقصى في ثمانية قرون بعدما
استعاده صلاح الدين الايوبي من الصليبيين وقد بقى في حكمهم
تسعين سنة فقط • لم يهنأ للمسلمين عيش في هذه المدة ، ولم
يطب لهم طعام وشراب ، حتى استردوه الى الولاية الاسلامية
العادلة ، ووصايته الرحيمة السمحة ، فكانت هذه الجمعة
(٢٩ صفر ١٣٨٧ هـ) والجمعة - مباركة في التقويم الاسلامي -

يوماً مشئوماً لم يعرف المسلمون في أنحاء العالم يوماً أشأم منه
منذ قرون ، ففى كل عين دمة ، وفي كل صوت حزن وشجى ،
وفي كل بيت حداد ومأتم ، وفي كل مجلس عزاء وورثاء •

هذا وقد كانت النفوس الجريحة يساورها أمل فى بقاء
الصراع والكفاح ، وطول الحرب ، فقد تنبأ الخبراء الأجانب ،
وأهل البصر بالموقع الجغرافى ، ان الحرب اذا طالت اياما ،
وثبت العرب فى المعركة فانها ستتهك قوى اليهود ، وتلجئها الى
أن تضع السلاح ، وكانت الدول العربية القريبة والبعيدة ،
تضم قواتها الى الحكومات التى كانت قد حملت مسؤولية
الحرب ، والامل تعلق كل جريح ومريض ، فكان بصيصا من
نور وبريقا من حياة يجسمه التفاؤل ، وقد انقطع هذا الخيط
الضعيف وخمد هذا المصباح الضئيل ، فقد قبلت « الجمهورية
العربية المتحدة » زعيمة المعركة وممثلة العرب وقف اطلاق
النار من غير شرط ، ووقعت الهدنة ، ووقع كل ذلك فى سرعة
أسطورية ، وبراعة تمثيلية ، ووقف العالم الاسلامى ذاهلا
مشدوها ، مكتوف اليد ، مسلوب الارادة ، فان أصحاب القضية
الذين كانوا فى المعركة ، والذين حملوا رايتها ، وتولوا كبرها ،
قد قبلوا الصلح •

وأصبح المسلمون من غد ، لهم وجود غير وجوههم

بالامس ، وأصبح مواطنوهم الشامتون وزملاؤهم في المكاتب
والمصانع يتنادرون عليهم وعلى الحكومات العربية ، وعلى اخوانهم
في الدين ، فمنهم من يقول : « لقد استسمننا ذا ورم » ، ومنهم
من يقول : « كنا نسمع من سنين جعجعة ولم نر طحنا » ، ومنهم
العامى اللاذع الذى يقول : « تمخض الجيل فولد فأرا »
والمسلمون يسمعون كل هذا في خجل وحياء ، والعهد بهم أنهم
يقرعون الحججة بالحجة ، ويقابلون الريح بالاعصار ، وهم
أصحاب بديهة وعارضة ، ولكن يخونهم الذكاء ، وذلاقة اللسان
في هذا الموقف ، ففيه ضعف وعجز ، فينشد الواحد منهم بلسان
الشاعر العربى القديم - عمرو بن معدى كرب :

فلو ان قومى أنطقنى رماحهم نطقت ولكن الرماح اجرت
ولم تكن القضية قضية شخصية، يسقط فيها قائد، ويخفق
فيها زعيم ، فما أهون هذه القضية ، وما أكثر امثالها فى تاريخ
الامم والحكومات وفي تاريخ الامة الاسلامية نفسها ، ولكن
اقرنت بهذه القضية قضية الحكومات العربية ، وتلوث بهذا
الاختناق الذريع • اسم العرب ، الذى كان يملأ القلوب مهابة
ورعبا في ديار العجم ، والذى ارتبط به تاريخ مجيد مشرق من
أروع انتواريخ الانسانية ، كان المسلمون فى جميع انحاء العالم
يستمدون منه الايمان والحماس ، ويعتمد عليه المصلحون

والمجددون ، والخطباء والمؤلفون ، والأدباء والمنشئون في كل
جيل وعصر ، في إثارة الشعور ، وإيقاد جمرات القلوب أكبر
اعتماد ، فقد أساءت هذه النهاية المخزية الى كرامة هذا التاريخ ،
والى منبع هذا الحماس اساءة كبيرة ، وخلقت مشكلة طريفة
لهؤلاء الدعاة والعاملين ، سيبتظرون اياما طويلة لاندمال هذا
الجرح وزوال هذا الانطباع .

ويحار العقل في تعليل هذه الهزيمة المنكرة وأسبابها ، اذا
استعرض الموقع الجغرافي ، وقارن بين ما يملكه العرب من
وسائل وقوات . . . ورأى التفاوت العظيم المدهش في عدد
النفوس ووصول الامداد والنجدة ، فاذا فكر في ذلك ، رجع
الفكر خائبا وهو حسير ، ولم ير لذلك مثيلا في تاريخ الامة
الاسلامية ، الا حين هجم انتار - وهم الجراد المنتشر والسيل
المنهمر - على الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، وقذف الله
الرعب في قلوب المسلمين ، وسلط هؤلاء الوحوش عليهم ،
بحصدونهم حصدا كالحقول ، ويسوقونهم سوقا كالقطعان
من الغنم والضأن ، ولا يمكن تعليل كل ذلك مهما دققنا في النقد
والتحليل ، الا بكلمة جامعة قرآنية معجزة ، هي «الخذلان»
وهو قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم
فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل

ولماذا كان هذا الخذلان بعد ما واكبهم النصر والتأييد
 الألهي ، ومشى في ركابهم الفتح في رحلتهم الطويلة ، وظهرت
 المعجزات ، ونزلت جنود السماء ، حتى اعتقد المسلمون - وفي
 مقدمتهم وعلى رأسهم العرب - ان النصر حليفهم في كل معركة ،
 وقضية فلسطين والمسجد الأقصى ، هي قضية حق وعدل ، وعقل
 ومنطق ، تستحق كل نصر وتأيد من الارض والسماء ، ودولة
 اسرائيل قامت على الظلم والجريمة ، والاعتصاب والمكابرة ،
 واليهود هم أذل خلق الله ، وأكثرهم جبنا وخنوعا ، وسكان
 هذه الدولة الوليدة خليط من البشر ، شذاذ أفاقون ، أحاطت
 بهم الدول العربية احاطة السوار بالمعصم ، والقلادة بالجيد ،
 فهي جزيرة في بحر واسع هائج ، وقد قال الله تعالى : « ضربت
 عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » (٢) واليك الحقيقة
 المؤلمة الثقيلة •

لقد كان العرب الأمة المخنارة لحمل الرسالة الاسلامية
 الاولى ، ونشرها في الآفاق وحراستها والحدب عليها • الى أن
 يرث الله الارض ومن عليها ، وقد ربط الله مصيرهم بمصير
 الاسلام ، وبعثه محمد عليه الصلاة والسلام ، وقرن بينهما

(١) سورة آل عمران

(٢) سورة البقرة

قرانا لا يقطعه شيء ، وقد أشعل قلوبهم حماسا في سبيل نشر
تعاليم الاسلام ، ودعوة الامم اليها ، وانقاذها من برائن الجاهلية ،
وقد كانت لأخلاقهم ومواهبهم التي خصوا بها من بين الامم ،
وانتى غذاها ونماها الاسلام ووجهها التوجيه الصحيح فضلل
كبير في انتصارهم على عدوهم ، الذي كان يفوقهم عشرات
المرات ، وفي تحطيمهم للامبراطوريتين العظيمتين - الروميسة
والايرانية - منها الايمان الراسخ ، والوفاء للاسلام ، والاستماتة
في سبيله ، ومنها الايثار والانسلاخ عن الانانية الفردية ، ومنها
العفة والزهد ، والتقشف في الحياة ، والصبر وقوة الاحتمال ،
ومنها الاعتماد على العمل والكفاح أكثر من الحديث والكلام ،
و « الواقعية » بدل الاسترسال في الاوهام والاحلام •

وقد جد في العالم العربي في الدور الاخير حـوادث
وتطورات ، قوضت دعائم هذه الحياة ، وأركان هذا الخلق
العربي الاسلامي ، وخلقت من هذا العالم الذي عجنت طينته
بالاسلام ، وحبه والوفاء له ، والتفانى في سبيله عالما جديدا ،
يختلف عن العالم القديم اختلافا جذريا ، وأهم هذه العوامل
التي غيرت اتجاهه ثلاثة عوامل بحسب الترتيب التاريخي •

العامل الاول : الحضارة الغربية ، والثروة الهائلة التي
تدفقت عليه ، وقد أثرت هذه الحضارة وهذه الثروة في أخلاق

هذه الامة العسكرية بالطبيعة والتاريخ ، والمتقشفة الزاهدة ،
بحكم الرسالة والوراثة ، تأثيرا عميقا ، قلبها رأسا على عقب ،
فتفتشت فيها روح التنعم والرفقة ، والترف والاخلاد الى الراحة ،
وفقدت روح الفروسية ، والفتوة العربية ، والنخوة ، والصبر
على المكاره ، واحتمال المصائب ، والثبات في معركة الحياة ،
واستهان الناس بأحكام الله وفرائضه ، وتجرأوا على المحارم ،
ووقعوا في حمى الله ، وأخل العلماء بواجب الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، وتركوا الحسبة على الناس ، وكلمة حق عند
سلطان جائر ، وانتشرت المجلات والصحف الماجنة الخليعة
تنشر المجون والخلاعة ، وتبذر بذور الفساد والالحاد ، وتحب
أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، واكتسحت المجتمع موجة
من التمتع باللذات ، وانتهاج المسرات ، وترفيه النفس وتسليتها
على حساب الاخلاق والضمائر ، وعلى حساب الشرائع والديانات
حتى أصبح بعض من يعرف قانون المجازاة الالهى ، ويعرف
تاريخ الامم السابقة البائدة ، يرفع بصره الى السماء ، خشية ان
تنزل عقوبة او يحل بلاء (١) ، ويتلو قوله تعالى : أفأمن أهل
القرى أن يأتيهم بأسنا بيانا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن
يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن
مكر الله الا القوم الخاسرون (٢) «

(١) حدثني بعض علماء مصر وأهل الغيرة بذلك عن انفسهم

والعامل الثاني : هي ظهور « القومية العربية » التي كان لها أعمق تأثير في حياة الأمة العربية وعواطفها ومشاعرها بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد قويت هذه العصبية على حساب العصبية الإسلامية ، وأصبحت ديانة وعقيدة يتغنى بها القوميون ، ويتحمسون لهما كما يتحمس أهل الديانات والملل لدياناتهم وشرائعهم ويرون فيها عوضا وخلفا عن الدين الإسلامي الذي أكرمهم الله بالإيمان به ، والانتصار له ، والتفاني في سبيله - يتمثل ذلك بعض التمثيل - في عبارات التقطناها على عجل من كتابات بعض كبار كتاب العرب ، وهي تقدم أسلوب الفكر الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية :

« العروبة نفسها دين عندنا نحن « القوميون العرب » المؤمنون العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها - أي العروبة - إلى أسس ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعادلات وفضائل وحسنات » (١)

« لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ان القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي »
ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة ، وتكثيل الجبهة ،

(١) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « قضية العرب » لعل ناصر الدين هاشم

والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة •

وان كتاب العرب في أعناقهم أمانة ، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة ، يزكونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم ، ويعملون على أن تتكفل لها أسباب النماء والازدهار « (١) •

« الوحدة العربية يجب ان تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين » (٢) •
« (القضية العربية) لن تكون أبدا عند العربي المؤمن الحر العاقل الشريف ، الصالح الخير ، الابى المترفع ، الا قضية ايمان ، ايمان بالوطن للوطن كقضية الايمان بالله لله ليس غير » (٣) •

وقد نشأ بذلك عقوق بنعمة الاسلام ، وكنود وكفران بحق محمد عليه الصلاة والسلام ، وفضله في تكوين هذا العالم العربي وابرازد من العدم الى الوجود ، وبدرت من أفواه كثير من الشباب المتعلم ، وبعض قادة الفكر وحملة الاقلام كلمات وكتابات ، يرتد بها صاحبها عن الاسلام ، ولا يستحق أن يدفن

(١) مقال للاستاذ محمود تيهور في مجلة العالم العربي ، عدد ١٧ ، بعنوان « النثر والقومية العربية »

(٢) مجلة العربي ، العدد الثاني ، ص ٩ ، يناير ١٩٥٩ م •

(٣) مقدمة الطبعة الثانية ص ١٩

في مقابر المسلمين • وصدرت مقالات في صحف ومجلات
حكومية يبرز فيها أصحابها كعدو حقوق نائر على الاسلام وجميع
الاديان ، وبدأ بعض الكتاب يتحدثون عن « الانسان
العربي الجديد » كعملاق مارد على جميع الاديان السماوية ،
والاسس العقائدية وجميع القيم الخلقية والروحية ، وقد عبر
عن هذه الفكرة كاتب جريء يمثل في مقال له في مجلة
عسكرية حكومية ، عددا كبيرا من الضباط والقادة ، والمفكرين
الذين يفكرون هذا التفكير ، يقول صاحب هذا المقال :
« استنجدت أمة العرب بالاله •• فتشت عن القيم القديمة
في الاسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي
وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد
فتيلا •• مع كل هذا شممت أمة العرب عن ساعديها ونظرت
بعيدا •• بعيدا •• لترى طفلها الوليد ، يقترب منها شيئا فشيئا
•• وهذا الوليد ليس الا الانسان العربي ، الاشتراكي الجديد •
الانسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في
مجتمعه •• التي هي ليست الا وليدة الاقطاع والرأسمال
والاستعمار •• تلك القيم التي جعلت من الانسان العربي انسانا
متخاذلا متواكلا ، انسانا جبريا ، مستسلما للقدر ، انسانا لا
يعرف الا أن يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » •

أما القيم الجديدة التي ستخلق الإنسان العربي الجديد ،
فهي قيم نابعة من صلب الإنسان المتمرد المعذب ، نابعة من قلب
الإنسان الجائع ، نابعة من الإنسان الاشتراكي الثوري الجديد
•• الذي لا يؤمن إلا بالإنسان وبالإنسان وحده •

والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع
العربي هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي
يؤمن أن الله والاديان ، والاقطاع ، والرأسمال ، والاستعمار ،
والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست الا دمي
محنطة في متاحف التاريخ

ونحن اذا نشترط في انساننا الجديد رفضه للقيم السابقة
علينا أن نضع فيما جديدة محدودة ليست هناك سوى قيمة
واحدة ، وهي الايمان المطلق بالإنسان القدرى الجديد ،
الإنسان الذي لا يعتمد الا على نفسه وعمئه وما يقدمه للبشرية
جمعاء ، لأنه يعلم نهايته الحتمية •• الموت •• وليس غير
الموت ، لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور
مع دوران الارض ، لذلك هو مضطر الى ان يقدم كل ما يملك
لامته ولانسانيته دونما مقابل (كزاوية صغيرة في الجنة
مثلا) (١)

(١) من مقال للمرشح ابراهيم خلاص في مجلة « جيش الشعب السورية »

وقد خامرت جميع الشعوب العربية نشوة هذه القومية في قليل أو كثير ، وجند لها زعمائها وقادة الادب والفكر والسياسة جميع مواهبهم وقواهم وجميع وسائل الحكومة وكان ذلك يثير سخط الله وغضبه ، ويقطع عن أصحابها نصرته وتأييده ، وقد زخر القرآن بالوعيد والوبال على من يجحد النعمة ، ويكفر بها : « واذ تأذن ربكم لان شكرتم لازيدنكم ولأن كفرتم ان عذابي لشديد » (١) ولا نعمة أعظم من نعمة الاسلام ، ولا ثروة أعز من ثروة الايمان ، وقد قال الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٢) وقال : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » (٣) .

والعامل الثالث : هو قيام الحكومات العسكرية الدكتاتورية في كل قطر عربي تقريبا ، وظهور ثورة عسكرية على اثر ثورة عسكرية في هذه البلاد ، وقد أفقدت هذه الثورات المشؤومة المتلاحقة المتوالية البلاد أفضل قادتها العسكريين وزعمائها

(١) سورة ابراهيم : ٧

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣

(٣) سورة ابراهيم : ٢٨

السياسيين ، وأكثرهم حنكة وتجربة ، واكتواءا بالسياسة
ومراسا بالحرب ، فكان عدد كبير من هؤلاء القادة وأركان
الحرب ، والضباط المحنكين ، والزعماء الناضجين ضحية هذه
الثورات وهذه الحكومات « الدكتاتورية » فيعدم كثير منهم ،
ويجلى الباقون ، ويغادرون البلاد فرارا بدينهم أو شرفهم أو
حياتهم ، وهكذا أصبحت هذه البلاد بفقر الرجال ، وأزمة القادة ،
ولم تبق فيها إلا عصابات معدودة محدودة لحزب واحد وأوجهة
نظر خاص .

وكانت أكبر مهمة هذه الحكومات « الدكتاتورية » المقلدة
للحكومات الشيوعية المتطرفة ، القضاء على كل عرق ينبض
وعين ترف فتعقبها تعقب محاكم التفتيش في القرون الوسطى ،
و فرعون مصر لأطفال بنى اسرائيل في زمن قبل التاريخ ،
فأصبحت البلاد كلها شبه معسكر لا يوجد فيه الا زى واحد
ونظام واحد ، أو كسجن كبير لا حرية فيه ولا تنوع ،
وأصبحت الصحافة والاذاعة آلة ترديد الصوت الرسمي
وتضخيمه ، وتعقت الجماعات الدينية بصفة خاصة ، ولقيت
القسط الأكبر من الاضطهاد والتعذيب ، والمطاردة والهوان ،
حتى عدت البلاد بطولها وعرضها قائلًا يقول : « أصبت »
و « أخطأت » و « أحسنت » و « أسأت » وأصبح الصوت

الوحيد الذي يسمع « أصبت وأحسنت » وعدمت البلاد بطولها
وعرضها قائلا يقول لضابط صغير من الضباط ، ولحاكم عادي
من الحكام ، بل لصحافي ومذيع ، أو كاتب وأديب ، « اتق الله
في أمتك وبلادك » وعنت هذه الحكومات بتجفيف منابع الايمان
والحماسة الاسلامية ، أكثر مما عنت بسد أبواب الفساد
والالحاد ومعاقبة الخونة المجرمين ، والداعرين الحشاشين ،
وكانت هذه الحكومات التي تزعم الديموقراطية أو الاشتراكية
أفزع صور الحكومات الشخصية الجائرة المستبدة في الزمن
القديم •

وكان أكثر شغف هذه الحكومات الدكتاتورية بالثرثرة
الفارغة والخطب الرنانة ، والوعود الخلافة ، والتهديدات
المجلجلة ، وكان اعتمادها على كثرة الكلام ، والدعاية
والصحافة ، أكثر وأقوى من اعتمادها على الجنود المسلحة ،
والآلات الحديثة ، والعتاد الحربي ، وروح الفروسية والبطولة
وتجنيد الشعوب ، حتى أتخيم بها السامعون ومجها وعافها
المستمعون ، وسخر منها الأجانب والمنافسون ، وقالت اسرائيل
في احدى اذاعاتها القريية « استمروا يا زعماء العرب في خطبكم ،
واختلاق القصص والاساطير ، فاذا جسد الجد وأن الاوان ،
علمتم ما هي اسرائيل ؟ هذه ساعة العمل ، لا ساعة الكلام ، وان

الدعوى الفارغة لا تقدم ولا تؤخر »

وكان مع الأسف « الجمهورية العربية المتحدة » من أبرع هذه الحكومات في صناعة الكلام ، فقد كانت صحافتها واذاعتها هي الجنود الحقيقية التي تعتمد عليها ، وتطاول بها ، ويخاف زعماء العرب ورؤساء الحكومات من تعرضها لهم ، ونهشها لأعراضهم وكراماتهم ، وقد كانت معركة كلامية حامية في هذه البلاد تتسابق فيها في المهاجاة ، والتراشق بالكلام ، والتسابز بالالقباب ، واختلاق التهم والقصص ، وكان للجمهورية العربية المتحدة الزعامة في هذا الميدان ، كما كانت لها الزعامة في كل ميدان من ميادين الأدب والثقافة ، فقد اجتمع عندها من الكتاب المحترفين والصحافيين البارعين ، والمذيعين المتحذلقين الثرثارين ما لم يجتمع لاي حكومة شرقية فضلا عن حكومة عربية .

زد على ذلك كله اعتماد هذه الحكومات واعتماد زعيمتها على القوة الخارجية ، وعلى الاوضاع والظروف العالمية التي ساعدت « السيد الرئيس » في كسب معركة « القنال » وشقت له الطريق الى ذلك ، وقد اتخذها عصا يتوكأ عليها في كل معركة .

في هذه الظروف والاجواء ، وبين هذه الاخلاق والاتجاهات قامت المعركة الحاسمة بين الحكومات العربية ، وهي مصابة بهذه العلل كلها وفي افلاس روحي وضعف خلقى ،

وأزمة في الرجال ، وفي العاطفة والحماسة والانسجام والوحدة ،
لا تزال تسمى هذه المعركة - الا في اللحظة الاخيرة - معركة
العروبة و « المعركة المصيرية » وقد سمع الناس في الاذاعة
رئيس وزراء في حكومة عربية كبيرة يفتح حديثه والحرب
قائمة على قدم وساق بقوله : « باسم العروبة الخالدة تحية
العروبة لكل عربي حر وتجرد عن كلمة تمت الى الاسلام والدين
والله والرسول بصلة ، والبلاد العربية لا تغشاها روح الانابة
والخشوع ، والابتهاال الى الله والالتجاء الى رحمته ونصرته ،
والاطراح على عتبة عبوديته ، والتوكل عليه ، والتبرؤ من كل
حول وطول الا اليه ، كما فعل أسلافهم الأولون ، وحث عليه
القرآن حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا
الله كثيرا لعلكم تفلحون • وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ، ولا
تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورياء الناس ويصدون
عن سبيل الله والله بما يعملون محيط » (١)

وخرجت المواكب والمظاهرات في العواصم العربية
تهتف : سنسحق الاستعمار الامريكى ، سنسحق الرجعية
العربية ، - التى هي أبغض الأعداء اليها - فلم تثبت هذه
الحكومات في المعركة ثلاثة أيام ، وطلبت وقف اطلاق النار من

غير شرط ولا قيد ، وكان ما كان ، مما ذل به كل مسلم فضلا
عن العرب ، في كل بقعة من بقاع الارض •
أما اسرائيل فلم تضيع ساعة ، بل دقيقة في تقوية مركزها
وتجنيد سكانها ، والاخذ بالجد واللباب ، وتهيئة الوسائل
والاسباب لكسب المعركة ، وغسل العار الذي لحقها في معركة
« القتال » فلم نسمع بثورة عسكرية فيها ، ولا بقيام حكومة
« دكتاتورية » تصدر جميع الحريات وتشل الحياة ، وتفلسج
الضمير ، وتحارب كل اصلاح ديني أو خلقى ، وتطارد كل
جماعة تنادى بالتمسك بالتعاليم الدينية والاخلاق الفاضلة ، ولم
نسمع طوال هذه المدة باعدام القادة الحربيين والضباط
العسكريين ، والزعماء السياسيين واجلائهم وتشريدهم ، كما
نسمع ذلك في كل فترة ومدة قصيرة عن العواصم العربية ،
وركزت كل جهودها ووسائلها على محاربة العدو المحيط بها ،
والانتصار عليه ، والدفاع عن « الوطن المقدس » ذلك كله في
هدوء وصمت ، وفي حيطة وحذر ، ومن غير دعاية وتهريج
وطعن في المنافسين ، واهدار كراماتهم ، وينسب أهلها نفوسهم
ودولتهم وكفاحهم الى أنبياء الله وأجباءه وتتسبب الى موسى
- حين ينتسب كثير من العرب في مصر الى فرعون - وتعتبر
كفاحها « جهادا مقدسا » وحربا دينية ، وقد فوجئ كثير من

أصدقائنا حين رأوا العرب يتناسون الإسلام ، ويتغافلون عن
العبادة والدعاء ، ويخرجون في غرور وخيلاء ، ورأوا ذلك في
« التلفزيون » ورأوا اليهود بالعكس ، قد صاموا عن بكرة أبيهم
يوم السبت ، وخرجوا يرفعون صحف التوراة بأيديهم ،
ويدعون الله ويسألونه النصر والتأييد •

هنالك يقع ما يقصم ظهر كثير من المسلمين والمشاركين
للعرب في العقيدة ، وفي النسل والطين (١) المحبين لهم بكل
قلوبهم وعقولهم ، الذين يعتقدون ان ذل المسلمين بذل العرب ،
وعز المسلمين بعز العرب ، وأنهم كنانة الإسلام ومأرز الايمان ،
وصعب على كثير منهم فهمه واحتماله ، ولكن الذي عرف سنة
الله في خلقه ، ودرس انقرآن دراسة عميقة مجردة ، وقرأ
انكاره على اليهود الذين كانوا يعتقدون أن بينهم وبين الله نسبة
ورحما ، ولهم عليه دالة وحق ، فهم لا يؤاخذون على التفريط ،
ولا يعاقبون على الاعمال والاخلاق ، فقال في صراحة ليست
فوقها صراحة ، وفي بلاغة ليست فوقها بلاغة ، « وقالت اليهود
والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل
أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله

(١) ومنهم كاتب هذه السطور وكثير من اصدقائه وذويه

ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير » (١)

وأعلن أن قانون الجزاء على الأعمال والأخلاق عام محيط
 ليست فيه مداهنة ولا محاباة ، وأنه ليس هنالك عند الله ما
 يسمى المحسوبية في الحكومات والإدارات ، فقال محذرا منذرا:
 « ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به
 ولا يجده من دون الله وليا ولا نصيرا » (٢) وذكر ان السعى
 والجهاد ، لا تتخلف عنهما نتائجهما ، وأنه لا يشترط فيهما
 مؤمن ولا كافر ، فقال : « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وأن
 سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى (٣) . وقال : « كلا
 نسد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك
 محظورا (٤) » ونفى عن نفسه الظلم وتطيف الكيل ، وبخس
 الحق ، فقال : « وما ربك بظلام للعبيد (٥) » وقال : « ان الله
 لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٦) » .
 وهدم القرآن عقيدة تمجيد النسل وتقديس السلالة ،
 والاستئثار ببيت خاص ، كما كانت شائعة عند اليهود والمجوس ،
 وفي ايران والهند ، وأرسي قاعدة العمل والجزاء ، والسعى
 والكفاح ، وربط المسببات بالاسباب ، والنتائج بالأعمال في غالب

(٤) سورة الاسراء

(٥) سورة قاف

(٦) سورة يونس

(١) سورة المائدة : ١٨

(٢) سورة النساء

(٣) سورة النجم

الأحوال ، فقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرد ، ومن يعمل
مثقال ذرة شرا يره (١) » وعاقب على الظلم وسفك الدماء
البريئة ، والعبث بالأرواح ، في كل مكان وزمان ، وفي كل أمة
وجيل ، وفي كل دين وشريعة ، وعاقب على السفاهة والرعونة
وتعطيل العقل والمنطق ، وتضييع الأسباب والعلل والاسترسال
الى الأوهام والأحلام ، والجدل والكلام ، في كل بقعة من بقاع
الأرض وفي كل دور من أدوار التاريخ ، وذم الطاعة العمياء
الرعاء لاي قائد مزهو بقوته ، ومغرور بنفسه ، لا يرجو معادا
ولا يخشى حسابا ولا يرقب الا ولا ذمة ، ولا يعرف هوادة ولا
رحمة فقال : « واتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون
برشيد (٢) » وقال : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم
النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (٣) » وقد
اقرنت بهذه الاخلاق والصفات ، وبهذه المناهج من الحياة نقمة
الله وسخطه بقطع النظر عن الاشخاص والذوات ، والأفراد
والجماعات ، والمذاهب والديانات ، فكان ما وقع - وياليت له لم
يقع - تصديقا للقرآن ، وبرهانا ساطعا على عدل الله ، وصدق
الاسلام ، وصحة ما جاء به الرسول ، ونطق به الكتاب

(١) سورة الزال

(٢) سورة هود

(٣) سورة هود

والسنة ، « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » .

أما بعد ! فالكارثة فادحة تقصم الظهر وتذيب المهجة ، وتحير العقل ، وتحطم الأعصاب ، وكل ما يقال عنها قليل وقاصر ، ولكن هذه الأمة ظلت تحتمل النكبات ، وتمر بسكورت ، كانت أولها وأعظمها وفاة نبيها وارتداد عامة العرب ، وانحصار الإسلام والمسلمين - وجعلهم بل كلهم من العرب - في مدينة صغيرة ، وقرية أو قريتين من الجزيرة يموج حولهم بحر الكفر والعداء ، وتكتنفهم امبراطوريتان عظيمتان قد هاجتا عليهن ، وطمعتا فيهن ، فهو كما يقول عروة بن الزبير « كالغنم في الليلة المطيرة الشتائية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم » والثانية تدفق الجيوش الصليبية والحكومات الأوروبية بأسرها وخيلها ورجلها على جزء صغير من المملكة الإسلامية ورميتها للمسلمين عن قوس واحدة ، واستيلاؤها على القدس والمسجد الأقصى ، وكثير من المدن العربية الإسلامية ، وتحديدها للإسلام ، وتهديدها لمركزه ومرقد نبيه عليه الصلاة والسلام ، فهم في مدهم الأول ، كالوتد الحريري يغرر في خشب نبي ناعم ، كما يقول « استيلى لين بول »

وثالثها زحف التتار الوحوش على العالم الاسلامي ، ونحطيمهم
له من أقصاه الى أقصاه فكانوا يسرحون على جثته وأشلائه
من غير خوف أو احتشام ، وقد كان العالم الاسلامي مقبرة
واسعة يهيم عليها الموت ، ويسود عليها الصمت الرهيب ،
وقد قطع المتفائلون الاقوياء الرجاء في نهضتهم ، ويذكر هذا
الحادث المؤرخون العرب ، فتنهمل عبراتهم ، وتتقطع أنفاسهم
ويفضلون السكوت على الحديث ، والموت على الحياة ، ويذكره
المؤرخ ابن الاثير الجزري فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا
عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه
رجلا وأآخر أخرى فمن الذي سهل عليه أن يكتب نعي
الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليت
أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وكانت
هذه الكوارث خليفة بالقضاء على أمة من أعظم الامم ، ولكن
الامة الاسلامية - وفي مقدمتها وعلى رأسها الشعوب العربية -
خرجت من تحت الركاب ، ومن تحت الانقاض حية جديدة ،
قوية نشيطة ، ونفضت عنها غبار الموت ، وتراب القبر الذي
تخيله أعداء الاسلام ، واستأنفت السير في ايمان جديد ، وثقة
مستأنفة ، ودم فاتر ، وحماسة زائدة ، والتاريخ مستعد لاعادة
نفسه اذا طلب منه ذلك ، واختير له السبيل القويم والصراط

ان هذه الكوارث الثلاث التي وقعت في عصور مختلفة وانتفاضة الامة الاسلامية بعدها ونهوض العرب ، يلتقى على نقطة واحدة ، وهى وجود قيادة مؤمنة ، راسخة العقيدة ، قوية الايمان بوعد الله ونصره وبصلاح الاسلام ، بالقوة الكامنة فيه ، شديدة التمسك بتعاليم الاسلام وآدابه واخلاقه ، مجردة عن كل أنانية ، وعصية جاهلية ، فكان على رأس الانتفاضة الاولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ورفقته ، وكان على رأس الانتفاضة الثانية صلاح الدين الايوبى وانصاره ، وكان على رأس الانتفاضة الثالثة علماء ربانيون ، ووزراء صالحون أسلم على أيديهم التتار أفرادا وامة ، وتحولوا حماة للاسلام وحملة لوائه في الشرق والغرب ، ويلتقى هؤلاء القادة على أنهم كلهم كانوا يدعون بدعوة الاسلام ويقاتلون بسيف محمد عليه الصلاة والسلام ، واستحقوا بذلك نصر الله وتأييده الخارق للعادة ، وظهرت المعجزة فقد قال الله : « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » (١) وقال : « وان جندنا لهم الغالبون » (٢) يجب علينا - نحن معشر العرب والمسلمين - أن نستأنف السير من جديد فنعترف - بالشجاعة التي عرفت بها العرب في

(١) سورة المجادلة

(٢) سورة الصافات

التاريخ - ان الطريق الذي اخترناه لبناء كياننا الجديد ،
واسترداد مركزنا في العالم الجديد ، وفي كسب القوة والوحدة
وفي انقاذ فلسطين ، كان طريقا عقيما منحرفا يحبط المساعي
ويخيب الآمال ، وأنه لا يقترن بنصر الله وتأييده ، حين لا عز
ولا كرامة ولا ظفر ولا انتصار الا بنصره وتأييده ، ونعترف
بشجاعة أن الله ربط مصيرنا بالاسلام وبمحمد النبي الامي ،
وبتأييد دينه « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور
الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١) وانه لذكر لك
ولقومك وسوف تسألون » (٢) ونعترف بشجاعة أن دعوة
القومية العربية ، قد أخفقت وافتضحت وأنها كانت « كسراب
بقية يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله
عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » (٣) ونعترف بشجاعة
أن الظلم مرتعه وخيم ، وان الطريق التي تسلكه الحكومات
الدكتاتورية الشيوعية ميد للبلاد ، مهلك للحرث والنسل ،
وأنه لا يتفق مع الاسلام ولا مع الانسانية ، ولا مع الحرية
الحقيقية ولا المساواة ولا الجمهورية وان الطاعة المطلقة العمياء
لقائد أو أمير ، والخضوع له في خير وفي شر ، وفي طاعة وفي

(١) سورة الاعراف

(٢) سورة الزخرف

(٣) سورة النور

معصية ، وتسليطه على العقل والنفس تسليط الاصنام والآلهة
وعدم محاسبته في تصرفاته يجبر النار والدمار على العباد والبلاد،
وأن نعترف بشجاعة بأن الثرثرة وكثرة الكلام والدعواوى
الفارغة لا تفيد شيئاً ، وان التفريط في الاستعداد ، وعدم مقابلة
الحديد بالحديد والغفلة والاختفاء الصيانية في ميدان الحرب
جريمة لا تغتفر في عالم الاسباب •

ونعترف بشجاعة أن العرب في حاجة الى ايمان جديد
بالدين الخالد القديم ، والى حب يملأ جوانح النفس ، ويفسر
العقل والقلب بعنوان مجدهم ، وسر شرفهم وكرامتهم ، ومنبع
قوتهم وانتصارهم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمى
القرشى ، الذى لا يعز العرب ولا الاتراك ولا الهنود الا بالايمان
برسالته الخالدة ، وتعاليمه الفاضلة وامامته الدائمة ، وقيادته
الرشيدة ، ونعترف بشجاعة ان المسلمين والعرب لا تفيدهم
قوة أجنبية ولا تخدمهم مصالح سياسية للاجانب تتقلب مع
الرياح ، وتخضع للمنافع والارباح ، فليتوكلوا على الله اولا
ثم ليعتسدا على سواعدهم وشجاعتهم وايمانهم ، واخلاقهم
وصفاتهم ثانيا •

ويجب أن نلتجىء الى الله أفرادا وأمة في ضراعة وابتهاال
ونتوب الى الله توبة اجتماعية نصوحا ونبراً اليه من كل حول

وطول ونؤمن بأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه • ولا نكون كالذين قال الله فيهم : « فلو لا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » (١) ولا كالذين قال فيهم : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » (٢) بل نكون كالذين قال فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضافت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » (٣) وللتوبة الاجتماعية المخلصة تأثير غريب في تغيير المصير وقلب الاوضاع ، فقد حكى القرآن عن هود قوله : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » (٤) وحكى قول نوح : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون الله وقارا » (٥) ولنصلح حياتنا وسيرتنا مع الله ومع عباده وفيما مكنت فيه ومتعنا به ، ولنتترك المنازعة مع الله ، ومحادثة رسوله ومعارضة شريعته وقانونه ، ولندخل في السلم كافة ، فلذلك

(٤) سورة هود

(٥) سورة نوح

(١) سورة الأنعام

(٢) سورة المؤمنون

(٣) سورة البراءة

تأثير سحرى في الفوز بالسعادة ، والعز والكرامة ، والنجاة من
الحكام الظالمين ، والأعداء القاهرين فقد قال تعالى : « وان لو
استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » (١) وقال : « ولو
أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والارض » (٢) وهذا هو السلاح الذي أشار به موسى على
قومه في مصر : « واوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكنا
بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشـ
المؤمنين (٣) »

الا ان العالم العربي لم يغب له نجم الا وطلع له نجم
آخر ، ولم يتوار بطل الا وبرز بطل آخر ، ولم يرض الله
بذله وهوانه ، ففي ذل المسلمين ، وفي هوانه شماتة الأعداء
الترصين ، فليتنص عنه الغبار وليستأنف السير ، وليعد الى
مر كزء ورسائله ، وصفاته الاولى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم
الأعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم
قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين
آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ، وللمحص
الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة
وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم
تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وانتم تنظرون » (٤)

(٣) سورة يونس

(٤) سورة آل عمران

(١) سورة الجن

(٢) سورة الأعراف